عقابُ الحِملان [1]

(1)

تؤكدُ مصادرٌ متنوعة وموثوقٌ بها تمامًا، على أن حملات عقاب البشر، التي تقوم بها الحِملانُ، قد شاعت على نحو متزايد في أجزاء من بوينس آيرس والمنطقة المحيطة بها. وتتفقُ كلُّ التقارير في وصفها للعملية: إذ يظهر، فجأةً – ويمكنك أن تقول من الفراغ – خمسون حَمَلًا أبيضَ، تشن هجومًا مباغتًا على ضحيتها البشرية، التي تكون قد وقع اختيارُها عليها مُسبَقًا، وتلتهمها في ثوان معدودة، ولا تترك منها إلا الهيكل العظمي، ثم لا تلبث أن تتفرق – على نحو ما ظهرت – فجأة، وكان الله في عون من يحاول منعها من الهرب.

وكانت حالات مميتة كثيرة قد سُجِّلتْ قبل أن يصل إلى علم أبطالها المُرتقبين ما انتهت إليه مصائر من سبقوهم. ولا يجرؤ أحدٌ في أيامنا هذه على معارضة عمليات العقاب.

وليس ثمة جدوى من الخوض في تفاصيل هذه الظاهرة، فقد صار الناس على دراية كبيرة بالحقائق، بفضل وسائل الإعلام، وأصبحت الصور والشرائط التوثيقية متاحة على نطاق واسع. إلاَّ أن معظم الناس قلقون بشأن عملية العقاب وعواقبها.

---

1 – العنوان الأصلي للقصة: Chastisement By The Lambs

وعلى أي حال، فإن غالبية الناس يتسمون بالبساطة، وينقصهم التعليمُ والقدرة على التبصُّر، وينحصر اهتمامُهم في الرغبة في انتفاء عملية العقاب. بالطبع فإن هذه الرغبة لا تضع حدًا لهذه العملية، كما أنها لا تكفي لتحديد دوافعها أو سبب وجودها.

ويتمثل الخطأُ الأساسي لهؤلاء الناس في أنهم، وهم بحالتهم من الانغماس في وقائع عملية العقاب ذاتها، قد نسوا الضحايا.

إن ما جعل النوم يجافيني، خلال المائة عملية إعدام الأولى، تقريبًا، هو الوجود الذي لا يُدحَض للحملان، التي لم تكن لاحمات، فقط، ولكن مفترسات، وشغفها بلحوم البشر. وعلى أية حال، فقد لاحظتُ فيما بعد أن التركيز على هذه التفاصيل جعلني أهمل أمرًا أساسيًا، وهو شخصيات الضحايا. وقد دفعني ذلك إلى أن بدأتُ أدقق في حيوات المتوفين، وقد استعرت أسلوب باحثي علم الاجتماع، فبدأتُ بما هو أولي، وأعني به البيانات الاجتماعية الاقتصادية، فتبين لي أن الإحصائيات عديمة الفائدة، فالضحايا ينتمون إلى كل الطبقات الاجتماعية والاقتصادية.

وقررت أن أغير ركيزة بحثي، فبحثتُ عن أصدقاء وأقارب الضحايا، الذين قدموا لي في النهاية المعلومات ذات الصلة بهذا الشأن. وكانت أقوالهم متنوعة، وأحيانًا متناقضة، ولكنني بدأت، شيئا فشيئا، أسمع نوعًا محددًا من العبارات، يتكرر ترديدها أكثر فأكثر، مثل: (دع الرجل المسكين ينام في سلام، ولكن الحقيقة هي أن ....).

(2)

وواقع الأمر أنني كرهتُ "نافاريو"، ولم أكن أود أن تلوث هذه المشاعرُ الموضوعيةَ الخالصة لهذا التقرير، إلاَّ أنني، أجدني مضطرًا لأن أسمح لنفسي باستطراد ذي طبيعة شخصية، من أجل تقديم شرح متكامل للظاهرة. وبالرغم من أن ذلك قد لا يهم أي شخص، فإنه تحوُّلٌ أراه ضروريًا ليتمكن الناس من الحكم على مدى صحة فرضيتي المتعلقة بالأحوال التي أفضت إلى ظاهرة الحِملان. وأورد الاستطراد كالآتي:

لقد تزامنت ذروة أعمال العقاب، فعلًا، مع فترة مفزعة من حياتي، كابدتُ فيها الفقر والتشوش والحزن، حتى شعرتُ بأنني في قاع بئر عميقة مظلمة، غير قادر على تصور أي مخرج.

هكذا شعرتُ، في حين أن "نافاريو" ... حسنًا، قد أقبلت عليه الدنيا، وهذا أمر طبيعي، فقد كان الهدف الوحيد لوجوده الشرير هو المال. كان همه الوحيد هو كنز الأموال، من أجل الأموال؛ ولتحقيق هذا الهدف المقدس، حشد كل ما لديه من طاقة لا ترحم، دون اعتبار للآخرين. ولا أجدني بحاجة لأن أقول أنه كان ناجحًا للغاية، فالحقيقة هي أن "نافاريو" كان، بالفعل، من يمكن أن تطلق عليه صفة (المتحقق).

وكما سبق أن ذكرتُ، فقد كنت في ذلك الوقت فقيرًا جدًا، ومن السهولة بمكانٍ أن يُستغلَّ أيُّ شخصٍ يعاني. وكان نافاريو، ذلك النسر الجشع، الذي لم يقرأ كتابًا في حياته، يعمل محررًا؛ وكنت قد اعتدتُ – من باب

الرغبة في تحسين الأحوال – أن أقوم ببعض أعمال الترجمة والمراجعة اللغوية لحسابه. ولم يكن نافاريو يُبخسني أجري فقط، وإنما كان يسره أيضًا إذلالي بالأعذار والتأخير في الدفع.

(3)

(لقد كانت مكابدة سوء المعاملة والفشل جزءًا من شخصيتي، وقد استسلمتُ إليهما). ولما سلمتُه آخر مجموعة من العمل، وكانت ترجمة مرهقة بشعة، قال لي نافاريو، على نحو ما كان يفعل في مناسبات أخرى كثيرة: لا أستطيع، لسوء الحظ، أن أدفع لك اليوم، فليس معي قرش واحد. وقد أخبرني بذلك في مكتبه الفخم، وعليه أبهى الثياب، ورائحة العطر تفوح منه، وقد رسم على وجهه ابتسامة، ألم أقل لكم أنه (المتحقق)؟!

وفكرتُ في حذائي المتشقق وملابسي البالية والاحتياجات الملحة لأسرتي وما يثقلني من ألم، فبذلتُ جهدًا لأقول له: ومتى تظنُّ ..؟. فكانت إجابته بنبرة متفائلة متحفظة، كما لو كان يحاول أن يساعدني: دعنا نأمل خيرًا. ويستطردُ قائلًا: لن يكون ذلك بمقدوري يوم السبت، حيث سآخذ راحة قصيرة أقضيها على شواطئ ريو، فلعلك تأتي إلى منزلي في حوالي الساعة الحادية عشر من صباح السبت التالي، لنقوم بتسوية هذا الحساب الصغير. وصافحني بحرارة، وربت على كتفي مُشجعًا في مودة.

ومرَّ أسبوعان، وذهبتُ إليه يوم السبت في منزله الكائن بشارع الأول من سبتمبر الجميل، حيث جعلتني خضرة الأشجار، مع رائحة النباتات،

وإشراقة السماء، وجمال المنطقة، أشعر بالخواء على نحو أشد؛ ودققت جرس الباب في الحادية عشرة وخمس دقائق. خرجت خادمة في زي رسمي لتخبرني بأن سيدها يخلد للراحة؛ فترددت لحظةً، ثم سألتها: وسيدة المنزل؟. فسمعتُ صوتًا يسأل: من بالباب يا روزا؟. فرفعت صوتي قائلًا: أنا يا سيدتي. هل السيد نافاريو موجود بالمنزل؟.

(4)

اختفت روزا بالداخل، وحلَّ محلها وجه زوجة نافاريو المغطى بمستحضرات التجميل. فسألت بنبرة صوت كأنه لرجل أعمال ثقيل يدخن سيجارًا: ألم يقال لك إن السيد يخلد للراحة؟. قلت: نعم يا سيدتي، غير أن بيننا موعدًا في الحادية عشرة. أجابت بطريقة قاطعة: نعم، ولكنه بدأ في الراحة توًّا. فتساءلت متغابيًا، وكأنني لا أعرف من هو نافاريو: لعله ترك شيئًا لي. ردت: لا. فقلت: ولكن بيننا موعدًا. فقالت: أقول لك أنه لم يترك شيئًا يا سيدي، فكف عن إزعاجي.

في تلك اللحظة، سمعت صوت هرج ومرج، وشهدتُ وصول الحِملان. فتنحيتُ جانبًا، وارتقيت السياج لأكون بأمان أكثر، برغم أن هاتفًا بداخلي كان يقول لي إن الحملان لا تبحث عني. واندفعت الحملان كإعصارٍ مقتحمة الحديقة الأمامية، وقبل أن يصل آخرها كان المتقدمون قد دخلوا إلى المنزل فعلًا. وفي ثوان معدودة، امتص باب منزل نافاريو كل

الحملان، مثل مصرف حوض يبتلع الماء، بعد أن داست أقدامهم أرض الحديقة وخربت نباتاتها.

وأطلَّت السيدة نافاريو من نافذة مصممة بشكل رائع، وقالت: تعال يا سيدي .. تعال. كانت تتوسل دامعة العينين، محتقنة الوجه: من فضلك، ساعدنا يا سيدي.

ودفعني الفضول للدخول. رأيت الأثاث مقلوبًا، وقد تحطمت المرايا. ولم أستطع رؤية الحملان. وأبلغتني السيدة نافاريو بأنها في الطابق العلوي، وراحت تسحبني في اتجاه الخطر، وهي تقول: إنها في حجرتنا، فافعل شيئًا ولا تكن جبانًا، وتصرف كرجل.

(5)

تمكنت من مقاومتها بقوة، فلا شيء يمكن أن يخالف مبادئي أكثر من معارضة عقاب الحملان. وكان بالمستطاع سماع أصوات متنافرة مشوشة لوقع الحوافر، قادمة من الطابق العلوي، ورؤية ظهور مستديرة، مكسوة بالصوف تهتز منتشية، يصاحبها بعض حركات قوية، تتعامل مع جسم غير مرئي، داخل الكتلة.

لقد تحققت من نافاريو للحظة عابرة، وكان فزعًا مرتعبًا، يصرخ بشيء ما ويحاول مهاجمة الحملان بكرسي. ولم يلبث أن غرق في لجة من صوف أبيض مجعد، مثل شخص تُغيِّبُه رمالٌ متحركة.

ثم حدث اضطراب آخر، وضوضاء متصاعدة من فكوك تمزق وتطحن، ومن حين لآخر أصوات رقيقة وحادة لعظام تتكسر. وعرفتُ من خلال بداية مناورات الانسحاب أن الحملان قد أنجزت ما جاءت من أجله؛ وبعد فترة وجيزة، كانت الحيوانات الصغيرة تنزل الدرج بسرعة. واستطعت أن أرى بعض بقع من دماء على بياض صوفها الناصع.

ومن الغريب أن تلك الدماء، التي هي عندي بمثابة البرهان الأخلاقي، قد أطارت لبَّ السيدة نافاريو، فراحت توجه إليَّ الإهانات من خلال دموعها، وتنعتني بالجبن، واندفعت خارجة من غرفة المعيشة وبيدها سكين كبيرة.

ولما كنتُ أعرف جيدًا مصير من يحاول إعاقة الحملان عن أداء مهمتها، فقد بقيتُ واقفًا بكل احترام في الخلفية، أراقب المشهد القصير الغريب لتمزيق وابتلاع السيدة نافاريو.

وبعد ذلك، غادر الحملان الخمسون شارع الأول من سبتمبر، ولم يلبثوا أن هربوا بالتشتت في أنحاء المدينة، كما هو الحال في مناسبات أخرى.

ولم تتأثر روزا، الفتاة ذات الابتسامة، بما حدث إلا قليلًا، وقد جاملتُها ببعض كلمات مريحة قبل أن أغادر المكان وقد انتفت عندي الكراهية. ومع أنني لم ولن أتمكن من تحصيل أجري من نافاريو عن تلك الترجمة المرهقة البشعة، إلاَّ أن قلبي، مع اخضرار الأشجار، ورائحة النباتات، وإشراقة السماء، وبهاء المنطقة، قد أُترع فرحًا؛ فبدأتُ أغنِّي.

(6)

وقد عرفتُ، حينها، أن البئر الحالكة التي كنت أغرق فيها قد بدأت تضيئ بأول شعاعات من أمل.

فشكرًا لك يا حملان العقاب.